دراسات الأدب المعاصر، السنة الرابعة، خريف ۱۳۹۱، العدد الخامس عشر، صص ۹۷-۱۱۴

القومية فی أشعار محمد الفيتوری

ليلا قاسمی حاجی‌آبادی *
پرويز لكزائيان فكور **

الملخص

الفيتوری شاعر كبير من إفريقيا دخل آفاقا لم يسبقه إليها شاعر منشدا الثورة ممجدا روح إفريقيا و البطولات العربية. فهو أنشد قصائد فی لبنان، فلسطين، والعراق يدعو الشعوب إلى الحرية و رفع الذل و الإستبعاد و يرى فی المستقبل أن ينهض الشرق من غفلتهم ليسمع فی كل مكان نداء الحرية و الإستقلال و يريد منهم أن يتحرروا من الاستعمار الذی آلمهم و أحزنوهم بما أنهم أحياء يستحقون الحياة الحرة؛ فعليهم أن يبذلوا دماءهم فی سبيل حرية وطنهم . *فالفيتوری* رافض لهذا الواقع العربی المتردی و لكن رفضه ليس ذلک الرفض الهدام الذی يريد أن يهدم كل شی"دون أن يبنی شيئا"، إن رفضه رفض بناء يبغی من ورائه النهوض بالأمة العربية و دفعها نحو الرقی و الحضارة و يبقی و هو يحمل هم الشعر و هم أمته العربية. يستخدم الشاعرلغة الرمز و الكناية فی قومياته كما أن مسحة من الألم و التشاؤم سيطر عليها، و يشير إلى عدة القضايا السياسية الهامة خلال قومياته.

الكلمات الدليلية: الفيتوری، الشعر، إفريقيا، القومية، الرمز، الإستعمار، الحرية.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

* عضو هيئة التدريس فی قسم اللغة العربية و آدابها، جامعة آزاد الإسلامية گرمسار(استاذة مساعدة).
leila03ghasemi@yahoo.com
** ماجستير فی الأدب المقارن، جامعة آزاد الاسلامية فی جيرفت.
الكاتبة المسؤولة: ليلا قاسمی حاجی آبادی

تاريخ القبول: ۹۰/۱۰/۵ تاريخ الوصول: ۹۱/۴/۲۰

المقدمة

يرتبط إسم *الفيتورى* بالإتجاهات السياسية فى القرن العشرين فنجد فى أفكاره خطاً مستمراً من التطور فى الأفكار و العلاقات السياسية؛ و قد إستطاع أن يدفع بالموقف السياسى إلى قلب الشعر. إنه حمل لواء الحرية و خاض المعارک الوطنية إلى جانب الشعب ضد الحكام، و ضد القمع و الإضطهاد و الظلم و التجويع و الطغيان و كان يعرف كيف جعل شعره يتوهج و ينير السبل أمام جماهيرالشعب. و لم تتخل القصائد السياسية الكثيرة التى نظمها عن الروح الحماسية العربية و الإندفاع و العاطفة الجياشة و قد أفزعه أن يرى الناس ما يعانون و يرى الحكام يعبثون و يصولون و لا رقيب و لا رادع.

لقد مثل *الفيتورى* بقصائده جزءً مهماً من حياة الشعب الإفريقى و الشعوب العربية، و هو تصوير حى لأحاسيس الشعب العربى و التعبير عن آرائهم و تطلعاتهم نحو المستقبل؛ و إن اشعاره تنزل على ظهر الحاكم الظالم كالسوط اللاهب يشبه شعر *فكتور هوغو* فى دفاعه عن الحرية و تنديده بالطغيان و الطغاة. أشعار *الفيتورى* مدرسة للدفاع عن الحرية و سيادة الانسان و تحرر كل البلاد من رحبس الإستعمار و الصهيونية و الفساد و العدوان (عراقى، ۱۹۹۵م :۱۶۸).

فهو فى الواقع كان إبن هذا العصر العربى، و كانت روحه مليئة بحب الامة و عطر تاريخها المجيد و تطلع إلى النهضة و تمثل الماضى؛ حينما نقرأ قصائده ندرک كم كان يبكى كالملايين الأخرى المفجوعة بموت البطل و تراه يصرخ من فوق مآذن القاهرة و مكة و القدس و المدينة و مآذن الرباط و بغداد و كل المدن و الدساكر لعل صوته المحفز يصل الجموع لتسمع بكاءه و نحيبه و أمله فى أن ينهض المتدثرون بالخيبة و الخذلان و الهزيمة أن يمشوا إلى البلدان المظلومة كفلسطين، فلسطين التى هى الجرح و الأمل، التاريخ الموجود و الدم المسفوک(نفس المصدر ،۱۹۹۵م: ۱۷۶).

حياته

ولد *الفيتورى* فى منطقة صحراوية عند حدود التيشاد من قرية غرب السودان إسمها "الجنينة" و هى قرية فى منطقة خضراء مطلة على النيل، مليئة بالأشجار و الأدغال و تكثر فيها الفاكهة و أشجار النخيل و النباتات الجنوبية الإستوائية الأخرى.

کان میلاده فی سنة ۱۹۲۹م من أب لیبی الأصل هاجر سنة ۱۹۱۷م إلی السودان، فکانت العشائرالإفریقیة ساکنة بهذه المنطقة، و من أم مصریة. دخل المدرسة فی وقت متأخرعن سنه الطبیعیة و إنتقل من المدارس الأزهریة إلی المدارس العصریة و هو مشرف علی الثلاثین من عمره(سعید محمدیة، ۲۰۰۸م:۲۱).

لم یسعد والد *الفیتوری* کثیراً فی غرب السودان فحمل عصا الترحال مثل آبائه و أجداده من قبل، و ذهب إلی الإسکندریة التی رأی له فیها موقعاً و لم یکن بعد قد أنجب من ذریته إلا *الفیتوری* فقط و شقیقه.

کانت الإسکندریة آنذاک موزعة بین عناصر متعددة؛ فیها العربی المسلم أو القبطی المسیحی و فیها المهاجرون الشوام أو النوبیون من أعالی مصر؛ هذا عدا الایطالیین و الیونانیین و بعض البلجیکیین و السویسریین و بقایا الأتراک و الشرکسی و کان العنصر الأجنبی مع العنصر القبطی یمسک بخیوط الحیاة العصریة الإقتصادیة و التجاریة فهؤلاء کانو یملکون المدارس و المطاعم و الفنادق و الأبنیة الفخمة.

و هکذا کانت الإسکندریة مجتمع الفوارق و الطبقات. دخل *الفیتوری* هذا المجتمع المتناقض المختلف بعضه عن بعض لیری نفسه و قد أطل علی التفتح و التحسن أنه لیس مقبولاً قبولاً حسناً لا هو و لا من قاربه اللون من النوبیین الذین لم یعملوا إلا کخدم فی البیوت والفنادق أو فی أحسن الأحوال طباخین. و عندما ذهب إلی المدرسة أدرک بالعقل و المشاهدة أنه هو و عائلته المهاجرة أصلاً من لیبیا فی موقع غیر محمود بالنسبة لهذه الترکیبة السکانیة الملونة المیول و الجنسیات.

فهو فی طفولته رأی هذا التناقض الحاد بین الخضرة و القحل و بین الإرتواء و العطش و بین العرقین الأسود و الأبیض و هذا الأمر ولّد عنده شعوراً واضحاً بالمفارقة و الإختلاف عن أهل الإسکندریة و قاده إلی الإحساس بالدونیة. عاش *الفیتوری* هناک أثناء الحرب العالمیة الثانیة ثم إنتقل بعد نهایة هذه الحرب إلی القاهرة و قبل أن یهیئ نفسه لدخول الأزهر أتم حفظ القرآن الکریم کلّه عن ظهرالقلب و درس فی الأزهر و إنتظم إلی زمرة الشعراء مقلداً القدماء و هو متأثر بالصوفیة و جوّها المألوف فی السودان و خاصة أن والده کان من رجالها(المصدرالسابق، ۲۰۰۸م: ۳۸).

تعدّ الوحدة و الإنفراد و الغربة الطابع الذی طبع حياة الشاعر كما ظهر أثره فی شعره. فكان يقرأ سيرة *عنترة* الشاعر الأسود و سيرة *أبی زيد الهلالی* ثم قصة «سيف بن ذی‌يزن» و «فيروز شاه» و «ألف ليلة و ليلة»؛ فهو متأثر بقراءته لهذه السير الشعبية و القصص الخيالية و أعجب بعمالقة الشعر العربی القديم من الجاهليين و الأمويين و العباسين و خاصة *الشريف الرضی* و *مهيار* و *إبن الرومی* و *أبی تمام* و *المتنبی* و *المعری*(خليل جحا، ۲۰۰۳م: ۴۴۶).

هكذا بدأ يكتشف ذاته و واقعه و يعرف سرّ المأساة التی ولدت معه و هی أنه قصير و أسود و دميم فينظمه فی ذلک واصفاً نفسه:

فقيرٌ أجل ... و دميمٌ دميمٌ
بلون الشتاء ... بلون الغيوم
يسير فتسخر منه الوجوه
و تسخر حتی وجوه الهموم
فيحملُ آلامَه فی جمود
و يحزن أحزانَه فی وجوم

(الاعمال الشعرية:۱۶)

هذا هو الشاعر الذی أخذت شاعريته تتفتح علی واقع ذاته فإذا هو قامة لصقت بالتراب و لكن روحه تهزأ بالقمم. فأثار يثور علی هذا الواقع:

و قامتُه لصقَت بالتراب
وإن هزئت روحُه بالقمم

(نفس المصدر:۱۷)

و مع هذا فإننا نجد *الفيتوری* بأنه يفاخر بزنجيته و لا يجد أی حرج فی لون بشرته، فهو إنسان و هذا هو المهم. هذا ما جعل *محمود أمين* يقول فی مقدمة ديوانه: «و من لون بشرته و من إحساسه العميق بالمرارة و الحقد صاغ له وطناً بعيداً نائياً هو إفريقيا؛ فيقول:

قُلها لا تجبُن .... لا تجبُن
قُلها فی وجهِ البشرية
أنا زنجیٌّ

و أبی زنجیٌّ
و أمی زنجیّة
أنا أسود
أسود لکنّی حرٌّ أمتلکُ الحریة
أرضی إفریقیة
عاشت أرضی
عاشت إفریقیة»

(دیوان أغانی إفریقیا: ۱۴۰)

فالمجتمع الذی یواجه *الفیتوری* هو المجتمع الأشقر الأبیض الغنی المتکبر العالی، و هو الأسود الداکن السواد الضعیف البنیة، الناحل القد، القصیر القامة، و الذی بات یحمل إحساساً بالغضاضة و لکنه کان أحالم الذی یحس بأن ینبغی أن ینهض و یستقیم و یرفع رأسه فی دروب الحیاة، و بدأ ینظر ماذا یضیع و کیف ینهض و أدرک أنه لا یوجد أمامه إلا الکتاب و المدرسة و بدأ العمل علی ذلک.

فکان یقرأ الشعر و یعود الی کتب اللغة و الروایات و الملاحم العربیة و کما ذکرنا کان أقرب هؤلاء إلی روحه *عنترة بن شداد* الشاعر الأسود شبیهه باللون و بدأ لسان *الفیتوری* یلهج بالشعر و بدأ عقله یقترب من القصائد و النظم و القوافی.

مذهبه

ما وجدت شیئاً فی الکتب المختلفة یشیر إلی مذهب *الفیتوری*، و لکننی رأیت قصیدة فی دیوان الشاعر یبدو من خلالها إعجابه *بالإمام علی(ع)* و مودته له؛ فنکتفی الإشارة الی بضعة أبیات من هذه القصیدة بعنوان «مقدمة الزیارة» التی قالها فی نجف الأشرف عند قبر *الإمام علی(ع)*:

وقفتُ یا سیدی
یا قوسَ دائرة من النبوات
و قد أراک و أدری أن تدرکَ فی
معارج السرِّ سر بالجلال حفی

يا نفسی لا تخفی
هذا عراقُ أميرِالمؤمنين
و هذی الأرضُ أرض علیٍّ ساكنِ النجف
هذا العراقُ و كم من غاصبٍ
كبُرت أحلامُه ثم لم يحصُد سوى التلفِ
هذا عراقُ العراقيين
عزتُهُم فی النفسِ لا فی حقولِ النفطِ و الترف

(نفس المصدر: ۲۸۹)

آثاره

للفيتوری آثار كثيرة تركها طوال حياتها المثمرة و قد طبع بعضها مراراً. فأهم آثاره:

۱.أغانی إفريقيا (۱۹۵۵م)
۲.عاشق من إفريقيا (۱۹۴۶م)
۳.أذكرينی يا إفريقيا (۱۹۶۶م)
۴.مسرحية«سولارا» (۱۹۶۹م)
۵.سقوط دبشليم (۱۹۶۸م)
۶.معزوفة لدرويش متجول (۱۹۶۹م)
۷.البطل و الثورة و المشنقة (۱۹۷۲م)
۸.ثورة عمر المختار (۱۹۷۴م)
۹.إبتسمی حتی تمرَّ الخيلُ (۱۹۷۲م)
۱۰.يأتی العاشقون إليک (۱۹۸۹م)
۱۱.موت الليل ...موت النهار (۱۹۹۴م)
۱۲.أحزان إفريقيا (۱۹۶۶م)

شعره

الفیتوری هو فی مقدمة شعراء المدرسة الواقعیة من حیث القدرة و الصناعة، و من حیث دقة الشعر و إنتظام الصورة. بإستطاعتنا أن نوزع شعر *الفیتوری* إلی روافد و لا شک فی أن إفریقیا هی الرافد الأول فی شعره؛ إفریقیا المتوحشة السوداء بغاباتها و شمسها المحرقه و حیواناتها و سکانها الزنوج الحفاة العراة. فنظم فیها أربعة دواوین؛ فبعد دیوانه الأول أی «أغانی إفریقیا» یأتی «أذکرینی یا إفریقیا» ثم «عاشق من إفریقیا» و أخیراً مسرحیته الشعریة«أحزان إفریقیا» التی تدور حول سرقة البشر و بیعهم کعبید فی أمریکا، و هو یرید من إفریقیا أن تستیقظ و أن تحطم القیود و تتحرر؛ أما الرافد الثانی فی شعر *الفیتوری* فهو رافد الصوفیة و یظهر ذلک فی دیوانه «معزوفة لدرویش متجول» و قد نظم قسماً کبیراً من هذا الدیوان فی لبنان؛ فهو یصوّر لنا لحظات الوجد الصوفی فی مراحل التأمل فی الواقع العربی و الإنسانی.

و الرافد الثالث فی أشعار *الفیتوری* الإهتمام بالحریة؛ حریة الانسان من رقّ العبودیة، حریة الانسان من أیادی المستعمرین و الدفاع عن المظلومین. فهو یقف إلی جانب الشعوب المقهورة و المستغلة یستحثها للثورة و التحرر(خلیل جحا، ۲۰۰۳م: ۴۵۰).

خصائص شعر الفیتوری

أ.الطابع العاطفی لا سیما فی الحنین إلی الوطن بأنغام حزینة.

ب.الطابع الصوفی الذی یتجلی فی عشقه بالطبیعة و وصف مظاهرها الخلابة، کما أنه یستمد من الطبیعة فی أشعاره السیاسیة.

ج.الطابع القومی الذی یتجلی فی وصف الشعوب و البلدان المختلفة.

د.النزعة الإنسانیة؛ فهو بصفة شاعر ملتزم یطمح إلی الاخلاق الإنسانیة الرفیعة و نجاة نوع الإنسان.

هـ .الأغراض الشعریة المختلفة کالحریة، الحنین إلی الوطن، و القومیة.

و.التشاؤم فی أشعاره لا سیما فی وطنیاته فیری وطنه بأسره ملیئاً بالظلم و الجور.

الإلتزام فی أشعار الفيتورى

يعتبر *الفيتورى* من الشعراء الملتزمين و الذى جعل الشعر وسيلة للدفاع عن إنسانية الإنسان و حفظ الكرامات الإنسانية و الكفاح مع الرق و العبودية بيد جبابرة العصر. فالشعر هو سلاحه فی مجابهة الإستعمار الذى عذّبه و إسترقه طول الدهر. فلنسمع معاً إلى الأبيات التالية:

يا خالقَ الإنسانِ من طينه
و خالقَ الفنّانِ من طينه
عذّبتَنى بالفن
عذّبتنى بهذه النار السماوية
أدعوک لا تشقّ بها كائناً بعدى
فهذه النار من قسمتى
رضيتُ أن أفنى على وهجها
لكى يعيش الفنّ فی مهجتى

(أغانى إفريقيا: ۱۳۰)

«فأغانى إفريقيا» الذى أصدره عام ۱۹۵۵م لقى صدىً طيباً فی العواصم العربية، و رحّب به نقاد كثر و وجدوا فيه صوتاً أصيلاً طالعاً من ذاكرة العذاب و حمل هذا الديوان دعوته الجريئة إلى رفض الظلم التاريخى و العنصرى و السياسى.

فالفيتورى شاعر ملتزم فی المعنى الإنسانى للالتزام و ليس فی معناه السياسى أو الواقعى الضيق صوت مجروح لم يشفه سوى البحث عن الجمال(سعيد محمدية،۲۰۰۸م:۱۵۵)

و كما أن هذه النزعة أى الالتزام جلية فی أشعاره نجد النزعة الإنسانية فيها بارزه، فهو صديق الأطفال و التعساء و المحرومين و حادياً للثوار و الأطهار و الأبرار فكان متعمقاً بالإلتزامات الروحية و الأخلاقية و القصيدة كانت تنبع من روحه فلهذا مليئة بالحرقة و اللوعة. فهو يميل فی القصيدة للتأمل و يغور فی قلب المجتمع و يأخذ دور ناسک حكيم يخاطب الروح و يستبطن العقل فی فذلكة فلسفية. نكاد نسمعه و هو يصرخ بصوته و

یصرخ بقلمه تعبیراً عما یحس؛ لیس هناک شعر حقیقی دون توظیف إجتماعی أو سیاسی.

فلنقرأ فی سیرته و شعره أحزانها الکثیرة و أشجانها المتصلة للإنسان، فهو فی إشراقاته و تأملاته و لحظات صفائه فی حال عودته إلی ینابیعه الروحیة الأولی. حالات النقاء و الرفعة و السمو و صمود القلب من دنس الحیاة الیومیة و عبثها و عبودیتها. نری صورة *الفیتوری* الفکریة فی جلالها بهائا نهضویاً شریفاً و مفکّراً ملتزماً و سیاسیاً یسلک طریق النبل و الإستقامة و حکیماً مرسلاً الحکمة فی القریض أو الخطابة فی المقالات أو فی البوح حدیثاً عن نفسه، أو عن الآخر عن الدنیا و ما فیها و عن الإنسان و ماهیته و عن الأوطان الصغیرة و الأوطان الکبیرة عن تاریخ الأحزان أو تاریخ الأفراح(المصدر السابق ۲۰۰۸م:۱۵۹). *فالفیتوری* وضع شعره فی خدمة الأهداف التی تضمن المصالح السیاسیة للوطن و الأمة و بصورة عامة فی خدمة الإنسانیة.

القومیة فی اشعار الفیتوری

قصة ظلم المستعمرین و نهب أموال الشعوب تؤلم کل إنسان و *الفیتوری* کان یشاهد أثر أسواط الإستعمار علی أکتاف الناس؛ فهو شاعر أحس مشاکل إفریقیا و مشاکل العرب معاً و فی النهایة صوّر مشکلة الإنسان المؤلم فی کل العالم فهو لا یتعلق بالإفریقیا أو بالشعوب العربیة بل یتعلق بالإنسانیة بکل الشرق، فیخاطب کل الشرقیین الذین یعتبرون أخاه:

یا أخی فی الشرق فی کلِّ سَکَن یا أخی فی الأرض فی کلّ وطن
أنا أدعوک فهل تعرفُنی یا أخاً أعرفه رغم اِلمحَن

فالفیتوری متمرّد علی الفقر و الجوع فی العالم، عنید أمام طاغوت الحکام و سیطرتهم، شامخ فی وجه محاولاتهم؛ فحاول أن یستخدم الشعر لغایات و الأهداف الإنسانیة الإجتماعیة هی إغاثة المظلومین و تحریرهم و نشر العلم و توحید الأمم. و السیاسة لدیه سیاسة وطنیة و قومیة یهدف بها إستقلال وطنه و کل البلدان العرب.

قومية *الفيتورى* هى إحساسه العربى الخالص فلا يتعلق بأمة هى هوى أو عصبية و ستبقى أشعاره منارة مضيئة أبد الدهر لكل الجماهير المكتوية بنار القمع و الإرهاب من أجل غدٍ أفضل و حياة حرة كريمة.

ففى الصفحات السابقة أشرنا إلى ثلاثة الروافد الشعرية عند *الفيتورى* فأما الرافد الرابع فى شعره هو رافد العروبة. فاذا كان *الفيتورى* قد بدأ ينظم الشعر فى إفريقيا و الدفاع عن قضاياها و الذود عن مصالح شعر بها فإنه لا يتنكر لواقعه و قوميته العربية. فهو عربى أولاً و إفريقى ثانياً؛ فلا عجب أن نجد فى شعره التيار العربى و القومى فلابد أن يتأثر بواقع أمته العربية و الدفاع عن قضاياها و قد صدمته الهزيمة التى نزلت بها سنة ۱۹۲۷م، فاكتشف أن الطغيان المسلط على رقاب العرب من الداخل و الخارج أشد وقعاً و أكثر إيلاماً من الظلم التاريخى المحيق بإفريقيا و بالإفريقيين، أو إن الإستعمار و النضال ضده حلقات أخذ بعضها ببعض على إمتداد التاريخ و الواقع الجغرافى.

فأخذت الرؤيا القومية تتكثف فى شعره و هى أجلى ما تكون فى مجموعاته الشعرية «البطل و الثورة و المشنقة» التى يهديها إلى روح المناضل *جمال عبدالناصر* و «إبتسمى حتى تمرّ الخيل». يضاف إلى ذلک كله مسرحيته الشعرية «عمر المختار» البطل الليبى و هى فى ثلاثة فصول و فيها يظهر أن *عمر المختار* كان زعيم الثورة الوطنية ضد الطغيان الإيطالى الفاشستى إلا أن البطل الحقيقى هو الشعب نفسه(خليل جحا، ۲۰۰۳م:۴۵۳).

لبنان

يعد *الفيتورى* من أهم شعراء الأمة العربيه و لم تتوقف فاعليته و دوره و تأثيره الشعرى على وطنه، بل تجاوزه إلى رحاب الإنسانية. فهو من شعراء بلا حدود و يشغل باله كل حوادث العالم العربى.

فالقصيدة التالية تمثل التمرد أمام طاغوت الحكام و سيطرتهم، فيبدى الشاعر سخطه من تجزئة لبنان و من أن يصبح لبنان كألعوبة بأيادى الحكام:

هناک لبنانُ و الأرض التى غضبت لوقع أقدام من خانوکَ يا جبلُ
هناک إرثَک فى الأرواح حيثُ سَرَ ت الأرواح مَن مَلَکوا الدنيا و من شغلوا

و يقول فى قسم آخر من القصيدة:

صرختُ و الدمُ فی راحات مَن شربوا — و لحمُ لبنانَ فی أشداق مَن أکلوا
لمن إذن نصب الموتی سواعدَهُم — فوقَ الحجیم و شبوا فیه و اکتحلوا
و فیم أطلق طفلٌ حسبتَه قمرا — من القذائف و التاریخُ منذهلٌ
و غاص فی وطن کالحلم تحرسه — عدالة الله فوقَ الأرض و المثل
لبنان لا لیس لبنان الذی صنعوا — بالأمس او قسموه الیومَ و احتَفَلوا
لا لیس لبنانُ تلک الملصقاتِ علی الـ — ـحیطان تنزو جراحات و تندملُ
و لیس لبنان هذا اللیلَ یغسل عینیـ — ـه بذبح ضحایاه و یکتحل

(الاعمال الکاملة:۶۶)

فهو یخاطب جبل‌عامل بلبنان و یقول: الخائنون غصبوا أرضک و قسموا لبنان، هم کانوا یشربون دماء القتلی و یمضغون لحم لبنان ثم یأتی بصرخة یثیر الحمیة: لماذا استشهد الأبطال و احترقوا فی نار الحرب و لماذا جعل الاطفال صدورهم مرمی القذائف؟ فأرسل الشاعر صیحاته تدوی بین اللبنانیین فهو یری بأن أیادی الظالمین لطخت بدم الشعب اللبنانی، و لکن أرض لبنان لیست ألعوبة للحکام الجائرین بل هی أحلام مقدسة تبقی فی الأذهان.

و یقول فی قصیدة «القنّاص یعترف للفریسة»:

بیروتُ تشهق بالقذائف والقنابل
بیروتُ تحلمُ بالخرائب و الزلازل
فهناک مجلود و جلّاد
و مقتولٌ و قاتلٌ
و بنادقُ خانَت
و أخری عن مواقعها تُقاتِل

و یمدح *الفیتوری* فی قصائد کثیرة مقاومة اللبنانیین أمام الیهود. فأنشد إحدی قصائده علی أسلوب محمود *درویش*:

أنا محمد بطرس العربی من لبنان
حسبُک لا تزِد حرفاً
و أعملُ بائعاً للیانصیب أبیع أوراق الحظوظ

لمن يشاء و ربّما تعب القليل و لم أجد إلا القليل
و أنت؟
نجّار قديم كان لی بالأمس حانوتٌ و ضاع
وأنت يا صيدا الوداع
هناک بيروت التی يحكون عنها
سأعود يا صيدا إليک
و أنت ما اسمک؟
كنت امتهن الحدادة ليس لی وطن
سوی لبنان
و اسمی منذ سمّانی أبی غسّان
لم أک حاضراً إذ ذاک
لا تقلَق فلن تحتاجَ بعدَ اليوم
لإسم أو هويّة
هل تريد هويتی؟
لا فرقَ يا غسان
سوف تموتُ مجهولَ الهوية

(نفس المصدر:۱۱۲-۱۱۳)

و يقول فی الأخطل ليمجّد لبنان و ليذكر فلسطين:
أنت فی لبنان
و الخلد هنا
و الرجال العبقريون أقاموا
حملوا الكون علی أكتافهم
و أحلی أغانيهم علی الأرض السلام
أنت فی لبنان
و الجرحُ كما كان يا لبنان
و النارُ ضرام

و الفلسطینُ التی کانت لَنا
سورةٌ تُتلی و قدّاساً یُقام
و شیوخاً تذکرُ اللهَ
فملءُ المحاریبِ صلاةٌ و صیام
والنبیین صَفَت أرواحُهُم
فلیالیهم سجودٌ و قیام
کان بیتُ اللهِ قُدسیاً بهم
قبلَ أن یأتی علی القدسِ الظلامُ

فأرض لبنان و فلسطین مقدسة و القدس هی القبلة الأولی للمسلمین، و کان محلاً للسجود و الصلاة و الصیام و هما الآن اغتصبتا و لا تجد من یحرّرهما من ید الجبابرة.

فلسطین

قضیة فلسطین هی القضیة التی أثرت علی شعراء کثیرین دون النظر إلی الأواصر السیاسیة و العقائدیة. فبعد أن بدأ الإستعمار الغربی بتهوید فلسطین قام الشعراء بتحذیر القادة ممّا سیحلّ بفلسطین التی تعتبر رمزاً لمجدهم و حضارتهم الضائعة و تمرّ السنون و تبقی قضیة فلسطین هی القضیة الأولی للأمةالعربیة.

قام الشعراء و الأدباء بردّ الفعل تجاه هذه القضیة قبل أن یهتم الجهات المعنیة إلی الوقائع السیاسیة الفلسطینیة و *الفیتوری* إهتم إلی هذا الجانب فی أشعاره و إختص قسماً کبیراً من أشعاره بهذه القضیة بما أنه فی قمة الرأی الحر و الدفاع عنه، فی قمة الکفاح من أجل تحریر الرأی العام من أباطیل الحکام الملتزمین بأوامر ساسة الإستعمار و صنائعهم.

ففی قصیدة «مقاطع فلسطینیة» یحثّ الهمم للثأر و یهاجم الخونة الذین باعوا فلسطین و یدعو إلی الوحدة و یری بأنّ الإحتلال جثم طویلاً علی صدور الشعب الفلسطینی و یجب أن ینفک قیوده، فهو یعتبر عید الفلسطین الیوم الذی صودق علی معاهدة غصب فلسطین و یری بأن القدس هو رمز البطولة و المجد و القداسة:

عیدُ السیادة ... ذکری إغتصاب فلسطین
عیدُ فلسطینَ... ذکری المعاهدةِ البربریة

عيدُ الصعود ... و عيد الهبوط
و كأس نبيذٍ لمجد يهوذا
و كأسان فى صحة المجدليةِ
و خارطة الدولة العربية
ممزّقة فى بقايا حطام
قوائمُه النُظُم العنترية
فهاتيک رايتها الجاهلية
و تلک عباءتها هاشمية
و يا قدسُ منّى عليک السلامُ

و هو يختصر موقفه من القضية الفلسطينية بهذا البيت من الشعر «إن جـرح فلسـطين ليس تضمده الكلمات». فمن ميزات هذه القصيدة أنها عميقة المعانى، دقيقة الوصف، قوية البناء. و فى قصيدة أخرى يقول:

لِيبق كلُ بطلٍ مكانَه
و لتصعق الخيانةُ
فالشعبُ سوف يغسلُ الإهانة
دوى نفير الثأر
يا جراح عشرين سنة
نجمة اسرائيل فوق المأذنة
فمن أذّن يا وطنى
ينهض للصلاة
بينما حوافرُ اليهود
تدوس سقفَ المسجدِ الأقصى
وتسجن إسم الله
و تركل القداس
بخٍ بخٍ أيتها العروس
فى جلوتها مخضوبة اليدين بالحناء

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

بخ بخ یا شهداء
شوارعُ القدس الإلهیة
تصفرُ فی أرجائها الرمادیة
و تستحم الأرض بالرماد
حیث مشی الأنبیاءُ

(الأعمال الشعریة الکاملة: ۱۸۲)

فنحن نجد *الفیتوری* یدافع عن حریة الانسان و حق الشعب الفلسطینی فی العیش الحر الکریم، فإنه یستلهم شعره من إنتفاضة الشعوب المقهورة، الشعوب المستضعفة و لا ینسی فلسطین و مأساتها.

و تبدو قومیته العربیة فی مقابلة أجرتها مع مجلة «الشعر» التونسیة حیث یقول: «ثم رأیتنی و قد أخرجت رأسی من تلک الشرنقة، ألمح وجهاً آخر للعالم من حولی و هو وجه واقعی العربی الذی أنا جزء منه. إن مجتمعی العربی یحاول أن یتخلص من أغلاله التاریخیة، العدوان الثلاثی علی مصر، الثورات المتلاحقة، الإنتفاضات الکثیرة، دوی أصوات الحیاة من حولی أن فکراً جدیداً یولد فی ذاتی، و أنا أحاول التعبیر عنده.

فالفیتوری ناقم و ثائر لما أصاب أمته العربیة من ذلّ و هوان، و لما ألم بها من هزائم و ضعف و تشتت. یقول مقذعاً إیاها هازئاً و ساخراً منها:

قد سُقط القدسُ
و غاصَ حافرُ القاتلِ فی دمائنا المحرّمة
و سُقطَ البُراقُ و الوحیُ
فهل عرفتَ أو هل ستعرفین
متی ستعرفین یا مکةُ المکرمة؟!

بغداد

یعتبر الشاعر العراق وطنه و یحس بألم شدید عندما جزّأ الاستعمار ترابها و أسال الدم من جبهتها؛ ففی القصیدةالتالیة یتحدث عما یری فی العراق من ظلم و استبداد و العراق غارقة فی الدم و لا یزال یصطبغ بالدماء:

الأيادی التی غسلت جبهةَ الشرق بالدّم
حتی أفاق العراق
جزؤوه و استبیحَ الترابُ الذی کان من قبلُ فوقَ التراب
عزیز النطاق
یا بلادی التی حملتنی بعیداً إلی عرسها
یا بلادی العراق

و یباهی فی قصیدة «یأتی العاشقون إلیک یا بغداد» ببغداد، و مجدها العریق و عروبة شعبها و یقول:

أقول أنا الذی لولا شموخُک أنت یا بغدادُ
لولا وجهُک العربی
لولا سیفک العربی
لولا شهادةُ من تضرّج بالشهادة
أو تکفن بالرمال
لولا صواریخُ الحسین برقن
لولا نخیلُ البصرة الصوفی عانَقَ أرضَه
لولا رایة باسم العراق و مجدُه العربی
لم یترکوا لک ما تقول

(الأعمال الکاملة:۲۸۲)

فبغداد هی الکعبة التی یسجد أمامها المجوس:

یأتی الشعر و الشعراء
شاخصة نواظرُهم إلی بغداد
کعبتُنا التی سجدت علی عتباتها
شمسُ الشموس

(الأعمال الکاملة:۲۹۵)

فیعطی الشاعر هالة من التقدس إلی بغداد و یعتبرها الکعبة التی تعبدها الناس و یضع یده علی الهمم القومی المشترک الذی یربط بین الشعوب المناضلة لأجل الحریة و الکرامة الوطنیة.

النتیجة

یهتم *الفیتوری* لقضایا الإجتماعیة و السیاسیة لکل البلدان العربیة فهو مواطن عالمی کانت کل المدن له موطناً فهو لسان المناضلین أینما کانوا.

کان *الفیتوری* ذا نظرة عمیقة للعالم العربی و کان یعانی کبقیة أقرانه من استثمار الشعوب المظلومة و یصوّر لنا أحاسیس الرجل الأسود الذی یدافع عن الحریة أینما کانت؛ فیمکن لنا أن نلاحظ مشاکل حیاة الأقوام العربیة فی آسیا و الشرق الأوسط فی أشعاره.

و یبدو لنا أن قصیدة *الفیتوری* وثیقة الصلة بالواقع العربی و بالإنسان العربی و بالتاریخ العربی و یصوّر بشعره الواقعی طموحات الإنسان العربی المعذب و المسلوب الإرادة و هو بالتالی یستلهم التراث العربی فی شعره و القصیدة عنده تنتمی إیقاعاً و نغماً إلی الإیقاع العربی الإنسانی المعاصر المتداخل مع إیقاعات عصره، و هی لیست تکراراً أو صدیً لقصائد الشعراء الآخرین بل هو شاعر له شخصیته المیزة و طابعه الخاص و أسلوبه الذی یتفرّد به. له رؤیاه السیاسیة و صوته الرافض و مناصرته لقضایا جماهیر الشعب العربی. لا یتعمد الغموض و الابهام و لا یدّعی الحداثة الزائفة بل إنه یری أن الشعر لیس هدفه أن یصور الأشیاء أو ینقل الطبیعة بل علیه أن یکون أداة فضح و تحریض و ثورة و تحدٍّ.

فالتشاؤم و الیأس و فقدان الأمل قد غلب علی أشعاره مع أنه یعتبر یأس الشعوب مانعا"للوصول إلی الأهداف السامیة؛ و إتسمت قومیاته بالروح الحماسیة العربیة و العاطفة الجیاشة و تصاویره الشعریة تصاویر حیة لأحاسیس الشعب العربی.

المصادر و المراجع

سعود البابطين، عبدالعزيز. ۱۹۹۵م. **معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين**. الطبعة الأولى. رياض: مؤسسة عبد العزيز.

سعيد محمدية، أحمد. ۲۰۰۸م. **محمد الفيتورى صفحات من سيرة مجهولة**. الطبعة الأولى. بيـروت: دارالعودة.

الفيتورى، محمد. ۱۹۹۸م. **الاعمال الكاملة**. مصر: مطبعة الهيئةالمصرية العامة للكتاب.

عراقى ،عاطف. ۱۹۹۵م. **العقـل و التنـوير فـى الفكـر العربـى المعاصـر**. الطبعـة الأولـى. بيـروت: المؤسسةالجامعية للدراسات و النشر و التوزيع.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی